البيـة الـ بـ ية

إن كل واحد من بني البشر مدين في تركيبته العقلية والنفسية والبدنية وفي علاقاته الاجتماعية لأمرين جوهريين؛ هما الوراثة والبيئة. ففي طريق التفاعل النشط جدًا والغامض جدًّا بين ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا وبين مجموعة المعطيات التي وفرها عيشنا في مجتمع ـ يبرز إلى الوجود نسخة مستقلة متميزة من ولد آدم لا تكاد تتطابق مع أي نسخة أخرى. وإذا كنا لا نملك أي خيار حيال ما ورثناه عن أسلافنا، فإننا نملك الكثير الكثير مما يمكن أن نفعله تجاه البيئة التي ننشِّئ فيها صغارنا. لكن بما أن التعقيد أصل فيما يتصل بمسائل التربية؛ فإن تكوين البيئة التربوية لا يخلو من المشكلات والأزمات: مشكلات على مستوى التنظير، ومشكلات على مستوى العمل.

أما على مستوى التنظير؛ فإننا نتساءل دائمًا عن مواصفات البيئة التربوية الجيدة. وعلى الرغم من كثرة ما ألقينا من أسئلة، وكثرة ما تلقينا من أجوبة فإن الجدل ما زال قائمًا. ويبدو أنه لن يشهد أي نهاية؛ وذلك لأن توصيفنا للبيئة التربوية الجيدة لا يمكن أن يخضع إلا لرؤيتنا الخاصة للحياة وللإنسان؛ أي إنه جزء من الفلسفة الشخصية التي بلورها كل واحد منا. وهي مهما اتفقت في الخطوط العريضة مختلفة جدًّا في التفاصيل الدقيقة.

والمشكلات التي تواجهنا في إيجاد البيئة المناسبة للجهد التربوي تتمثل في أن المفهومات والظروف التي تشكل البيئة التربوية في البيت والمدرسة والشارع... ترسخت على نحو تراكمي بطيء؛ فرؤية الأسرة للحياة وآفاقها وغاياتها وهمومها هي غالبًا جزء من رؤية المجتمع. وتلك الرؤية ولَّدتها العقيدة، والتاريخ، والظروف المعيشية الراهنة، وطبيعة الأحداث الجارية التي توجه اهتمامات الناس... وتلك المعطيات الضخمة والصلبة كثيرًا ما تستعصي على أي تغيير،

ومع هذا فإن الوعي بأهمية البيئة في تنشئة الأجيال يجعلنا ننطلق نحو التفكير فيما نستطيع عمله. ولا ريب أن إمكاناتنا في تحسين البيئة التربوية متفاوتة؛ والتوفيق من الله ـتعالىـ.

وإلى جانب كل ما سبق ذكره هناك اليوم تساؤلات جديدة حول وجود البيئة التربوية نفسها؛ حيث إن لدينا من يقول اليوم: ليس في ظل هذا التواصل الكوني بيئة خاصة يربي الناس فيها صغارهم، والأمر لا يعدو أن يكون ضربًا من الأوهام.

والحقيقة أن التساؤل حول وجود بيئة تربوية تساؤل مشروع ومفهوم، ولا سيما إذا علمنا أن كثيرًا من الفتيان صاروا يتنقلون عبر وسائل البث والاتصال في أرجاء العالم، وصاروا يتواصلون مع بيئات أجنبية عن بيئتهم المحلية على نحو كثيف لا يقل أحيانًا عن تواصلهم مع أهليهم وأبناء بلدهم، لكن مع هذا نقول: إن الأطفال والفتيان والشباب يظلون أَمْيَل إلى الثقة بذويهم ومُعلِّميهم ـبوصفهم مرشدين وموجهينـ أكثر من ثقتهم بما يرون ويسمعون مما لا يعرفون أي شيء عن مصادره وخلفياته. بل إننا إذا نجحنا في تحسين مستوى الحيوية والتفاعل في مدارسنا وجامعاتنا؛ فإن كثيرًا من الأبناء سوف يتخذون من توجيهات مُعلِّميهم ومرشديهم نظارات يرون من خلالها العالم.

ومع هذا فإنه لا ينبغي أن نقلل من شأن المخاطر والتحديات التي باتت تهدد كثيرًا من جهودنا التربوية بسبب التدفق الضخم للصور والرموز والنماذج الأجنبية على العالم الإسلامي. ومن ثم فإن المشكلة لم تقتصر على انفتاح الناشئة على البيئات الأجنبية، وإنما تجاوزها إلى تلويث بيئاتنا المحلية؛ حيث الكثير من التطورات السلبية التي تتعرض لها البيوت.

الانسجام مع الذات:

يمتلك الأطفال والفتيان درجة عالية من البراءة، فهم يثقون بالكبار، ويعتقدون بصدق ما يقولونه، ويستغربون ما يرونه من تصدع بين الأقوال والأفعال في سلوكات الكبار؛ ويقفون في البداية موقف الحائر المتردد العاجز عن الفهم والتأويل. ومع مرور الأيام تتضح الصورة أمامهم؛ حيث يدركون أنه ليس على المرء أن يحمل كل ما يقال على محمل الجد، وألا يفهمه فهمًا حرفيًّا، بل يتضح لديهم أن التطابق بين الأقوال والأفعال لا يكون موجودًا دائمًا! وحين ينتظم الأطفال والفتيان في الدراسة، ويشرعون في التفاعل مع المواد والدروس التي يتلقونها تبدأ لديهم محاكمات من نوع جديد؛ حيث إنهم هذه المرة يقارنون بين ما يلقنهم إياه أساتذتهم وما يقرؤونه في الكتب المدرسية، وبين ما يشاهدون من سلوك آبائهم وأقربائهم وأساتذتهم وزملائهم... وبما أن المقارنات تفضي دائمًا إلى مفارقات؛ فإنهم يجدون أنفسهم تحت وطأة صراع وحركة شد وجذب؛ فهم تارة يتأثرون وينفعلون بسلوكات من يثقون بهم من أهل وأساتذة، وتارة يتأثرون بما يقرؤونه في الكتب المدرسية من قيم ومثل وأفكار. ومن خلال ذلك الصراع يتشكل لديهم عدد كبير من المشاعر والمفهومات المزعجة التي تُضعف في النهاية من صلابة الشخصية ونقاء توجهها.

وهذه الوضعية الصعبة تحمّل المدارس والمؤسسات التربوية عامة مسؤولية كبيرة؛ لا تستطيع أن تتخلص منها بوعظ الطلاب، ولفت أنظارهم إلى الفضائل التي عليهم أن يتحلوا بها، والأعمال التي يجب أن ينجزوها، بل إن ذلك قد يزيد المشكلة تعقيدًا، ويوجد نوعًا من النفور الشديد لدى الطلاب. وستجد المدارس والجامعات أنه ليس أمامها سوى حل واحد؛ هو أن تبذل كل ما في وسعها كي تجعل من نفسها بيئة منسجمة مع ذاتها، متناغمة مع الرسالة التي تسعى إلى تبليغها لطلابها، وتقوم بتربيتهم عليها. وهذا يتطلب تضييق الفجوة بين واقع المدرسة، وواقع سلوك مُعلِّميها وموظفيها وإداراتها، وعلاقاتهم ببعضهم،

وبطلابهم وبين المضامين التي تقدمها الكتب المدرسية. وذلك وحده هو الذي يمنحها المصداقية من جهة، ويجعل منها محضنًا تربويًّا ناجحًا من جهة أخرى. إن من حق الطالب أن يلمس في مدرسته الالتزام الأخلاقي والمروءة والحيوية والجدية والتعاون والنظام والنظافة؛ لأن هذه المفهومات والقيم مما اشتملت عليه المناهج المدرسية، ومما يشدد عليه المُعلِّمون في قاعات الدراسة. وإن كل خطوة تتم في هذا الاتجاه يتلقاها الطلاب بمشاعر الاغتباط والإحساس بشرف الانتماء.

ويذكرون في هذا السياق أن مدير إحدى المدارس الثانوية استمع إلى محاضرة مؤثرة ألقاها أحد كبار التربويين العرب؛ حيث ركز فيها على تأثير وضعية المدرسة في نجاح الطلاب واستقامتهم. وقد تفاعل الرجل مع ما سمع تفاعلاً شديدًا إلى درجة أنه لم يذق طعم النوم في تلك الليلة؛ حيث تواردت عليه خواطر التطوير للمدرسة التي يديرها من كل حدب وصوب.

وخلال شهور من التأمل والتفكير والبحث بدأت صورة المدرسة التي يريدها تتشكل في ذهنه، وبدأ التنفيذ من خلال منهجية جديدة في إدارة المدرسة، تقوم على تحسين أوضاع تلك المدرسة في كل الاتجاهات، فقد صار يسعى إلى اختيار أفضل المدرسين للعمل معه، كما صار يستشير من يأنس فيهم الرشد والجدية من الطلاب في بعض ما يشكو منه زملاؤهم، ويحاول الاستفادة من آرائهم في إزالة أسباب الشكوى. وكان يحاول إلى جانب ذلك أن تقدم مدرسته لطلابها بعض الخدمات المجانية وبعض الخدمات الرخيصة. وقام بالإضافة إلى ذلك بتفعيل مجلس الآباء في المدرسة، وأشركهم في اتخاذ بعض القرارات المهمة... وقد أدى كل ذلك مع أمور أخرى إلى أن يشعر كل طالب بأنه محظوظ إذ أتيحت له الدراسة في مدرسة بتلك المواصفات. وأظهر كثير من الطلاب تفاعلاً إيجابيًّا عجيبًا مع إدارة المدرسة، وسادت حالة نادرة من الشعور بالرضى حتى قال أحد الطلاب: أظن أن مدرستنا أول مدرسة في بلادنا يشعر

الطالب إذا دخلها أنه في بيته، لولا استمرار الدراسة ساعات طويلة! وقد انتشر خبر تلك المدرسة في المدينة، فصار الآباء يتهافتون على تسجيل أبنائهم فيها، وانهالت عليها التبرعات السخية من بعض الموسرين، وصارت تنتقل من نجاح إلى نجاح!

ليست المدرسة جزيرة معزولة:

نحن لا نتعامل مع أبنائنا وطلابنا ـ كما لا نتعامل مع باقي الناس ـ على نحو مباشر، وإنما عبر وسيط معرفي، وهذا الوسيط هو (اللغة). ومن الواضح أن اللغة ناقل غير شفاف، وغير دقيق؛ إذ مهما عمدنا إلى استخدام ألفاظ وأساليب دقيقة للتعبير عن مراداتنا ـ وجدنا أنفسنا مرتهنين للغموض والفهم النسبي. إن ما نقوله يظل لينًا مطواعًا قابلاً لأي تشكيل جديد. والبيئة التي يعيش فيها السامع والناشئ هي التي تبدع قوالب التشكيل من خلال مجموعة المفهومات والصور السائدة، فالمعنى الذي يفهمه الطفل الذي نشأ في قبيلة تحترف الغزو والقتال من كلمة (شجاعة)؛ مغاير على نحو كبير للمعنى الذي يفهمه طفل نشأ في مدينة يسودها النظام والقانون.

إن الأول قد ألف مشاهد القتل وسفك الدماء؛ فالشجاعة لديه فتك بالعدو وإقدام على جموعه من غير تهيب. على حين يتجه الطفل الثاني إلى فهم الشجاعة على أنها الجرأة في قول الحق أو في نقد الذات، أو في قتل فأرة، أو الخروج من بيته إلى بيت الجيران ليلاً... وهكذا فإنهما يتفاوتان في فهم مدلولات الجدية والتسامح والعدوان والكرم واللطف والنظافة... وهنا تبرز خطورة تأثير البيئة؛ فهي لا تعلم صغارنا ما يقولونه فحسب، ولكنها تمنح المعنى ما نقوله لهم أيضًا. وهكذا فالإنسان المتوحش الهمجي ليس متوحشًا بطبعه وجبلته، ولكنه على الغالب نشأ في بيئة متوحشة. والإنسان اللطيف الحساس ذو الحديث المخملي

نشأ غالبًا في بيئة تقدر هذه المعاني، وتقدم تجسيدات حية لها. وهكذا فإن وزارات التربية والتعليم تقرر مناهج دراسية واحدة، وتبعث إلى كل أقاليمها بتعليمات موحدة، لكن الآثار التي تتركها في نفوس أبنائها وعقولهم متفاوتة إلى حد بعيد. وما ذلك إلا لأن البيئة التي تقوم بترميز المعاني والمفهومات والنظم وشرحها تتفاوت بين إقليم وإقليم آخر تفاوتًا بيِّنًا. وأكثر ما يكون ذلك التفاوت في البلدان النامية؛ حيث تستحوذ المدن على أفضل الخدمات على حين يعيش أكثر سكان القرى والأرياف في بحر من المشكلات والأزمات. بل إنك تجد في المدينة الواحدة اختلافًا جوهريًّا بين حي يقطنه الأثرياء والموسرون، وبين حي يسكنه الفقراء المعدمون؛ حتى كأنهما ينتميان إلى قطرين مختلفين!

هذا كله يعني أننا بحاجة إلى تطوير بيئة التعليم والارتقاء بها؛ لأن ذلك ارتقاء بمدلولات الكلمات التي نكوِّن من خلالها المفهومات والمشاعر ورؤية الماضي والمستقبل. ولا بد أن ندرك أن البيئة المدرسية مهما نالت من العناية تظل جزءًا من بيئة عامة. ومن الصعب إدخال تحسينات جذرية عليها إذا كانت الأوضاع في البيوت والشوارع... سيئة أو منهارة. وهذا هو السر في أن كثيرًا من الدول النامية استعارت نظمًا تعليمية وغير تعليمية من بلاد الشرق والغرب، وحاولت الاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة، لكن النتائج كانت دائمًا دون الطموحات؛ لأن النظام التعليمي ما هو إلا نظام فرعي يتنفس ويتغذى في فضاء بيئة شكلتها مجموعة النظم العقدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة، فإذا نُزع من فضائه الخاص الذي تبلور فيه، وزُرع في فضاء آخر مغاير فإنه لا يؤدي الأداء المرجو منه.

هذا كله يحيلنا على الرؤية الإسلامية في الإصلاح؛ حيث يتم التركيز على الشمول في التغيير لكل نظم الحياة، وعلى سريان عقيدة العبودية لله ـتعالىـ، ورجاء الآخرة في كل الأنشطة التي يمارسها المسلم في أنشطته اليومية. ولا ينبغي

لهذا التحليل أن يقعدنا عن القيام بالإصلاح الجزئي؛ حيث لا يكلف الله ـ تعالى ـ نفسًا إلا وسعها، فإذا كان المديرون والمدرسون قادرين على إدخال بعض التحسينات على بيئتهم المدرسية، فليفعلوا ذلك؛ فالأمم تبني المدارس والجامعات لتتخذ منها منارات إصلاحية لتتيح لأبنائها نشأة نموذجية جديدة، تساعدهم على أن ينهضوا بمجتمعاتهم بعد تخرجهم منها. ومع أن هذا الاعتقاد يظل ينطوي على شيء من السذاجة إلا أننا بحاجة إليه حتى لا نقع فريسة للإحباط، وحتى لا نجد أنفسنا ندور في حلقات مفرغة أو في إجازة مفتوحة.

ما البيئة التعليمية الجيدة؟

المدارس والمعاهد والجامعات بيئات تربوية متخصصة مختارة، ويرتجى منها في الأصل أن تقوم بوظائف تربوية؛ لا تستطيع الأسر القيام بها، فكثير من الآباء والأمهات أميُّون، كما أن كثيرين منهم لم يتلقوا أي معلومات أو خبرات في الثقافة التربوية، مع أن البيوت هي المحاضن الأساسية للتربية.

ولعلي هنا أوجز أهم السمات التي تجعل من البيئة التربوية بيئة جيدة على النحو الآتي:

1 ـ لا يمكن أن تكون المدرسة بيئة تربوية جيدة من غير التزام عام بالمبادئ والقيم الإسلامية؛ لأنها تشكل الأساس العميق الذي يقوم عليه البناء التربوي كله. إن كل مؤسسة تعليمية تحتاج إلى قاعدة ثقافية تربي وتوجه على أساسها، وإلى منطق موحد يصبغ خطابها التربوي. وليس في ديار الإسلام ما يوفر ذلك المنطق وتلك القاعدة سوى المفهومات والأدبيات الإسلامية المستخلصة من المنهج الرباني الأرشد.

وعلى مقدار ما تنجح مدارسنا في استلهام ذلك المنهج والاحتكام إليه والتحقق به؛ تقترب من النجاح الذي تنشده في إعداد أجيال المستقبل على الصعيد العلمي والتربوي. وهو منهج واضح جلي بحمد الله.

2ـ سيظل في إمكان المُعلِّمين أن يروا الأشياء من زوايا مختلفة، وأن يستخدموا مقاييس عديدة؛ إذ يمكن أن نرى أسوأ ما في الطلاب على المستوى المعرفي والسلوكي، كما يمكن أن نرى أفضل ما فيهم، ونشكل بناءً على كلِّ رؤية المشاعر والتوجهات التي تناسبها. ويمكن في الوقت نفسه أن نقارن بين الطالب، وبين نماذج سيئة جدًّا من الطلاب فنرى فيه بعض الإيجابيات، كما يمكن أن نقارنه بنماذج جيدة من الطلاب، فنرى فيه بعض الإيجابيات.كل هذا في أيدينا، وكل هذا مما يمارسه المُعلِّمون يوميًّا، وعلى هذا فإن الخير والشر والتفوق والخمول لدى الطلاب هي أشياء نسبية، وليست مطلقة؛ وينبغي أن نكون على وعي بذلك. وعلينا بعد هذا أن نتساءل: ما الذي نجنيه إذا نظرنا إلى أسوأ ما في الطلاب، وأوقعناهم من ثم في دوامة اليأس واحتقار الذات؟! وماذا نستفيد إذا نظرنا إلى نقاط القوة لديهم وأخذنا بتحفيزهم، وبث روح الأمل والرجاء فيهم؟!

في اعتقادي أن تقويم الطالب على نحو صحيح؛ سيظل أحد الثوابت في العملية التعليمية. ومن الضروري أن يعرف موقعه الحقيقي بين الطلاب، ولكن مع هذا فإن تشجيع الطالب وتذكيره بنقاط القوة لديه، وما يمكن أن ينجزه ويقوم به يظل أعود عليه بالنفع من إيقاعه في القنوط، ووضع العقبات في طريقه

إننا نعرف أن كل الأعمال الإصلاحية الناجحة كبيرها وصغيرها؛ تنطلق من خلال الارتكاز على الإيجابيات القليلة المتوفرة؛ حيث يتخذ المصلح منها رأس جسر لبناء إيجابيات أكثر وأعظم. وهذا ما ينبغي أن نقوم به.

حتى تكون المدرسة بيئة إيجابية؛ فإن عليها أن تحفز روح الانفتاح والمصارحة والمشاركة والتعاون لدى جميع المنتسبين إليها من إداريين ومُعلِّمين وطلاب. ويفوق ذلك كله شعور الطلاب بأن القائمين على المدرسة يهتمون بهم فعلاً، ويحاولون مساعدتهم على التحسن والارتقاء.

لن تصبح المدرسة بيئة إيجابية ما لم يتدرب إداريوها ومُعلِّموها على حسن الإصغاء، كما تدربوا على تجويد الكلام، فالمراهقون يعانون من الكثير من المشكلات، وحاجتهم الأولى ليست إلى من يحل لهم تلك المشكلات، وإنما إلى من يملك القدرة على أن يسمع لهم حتى النهاية.

3ـ في كثير من الأحيان لا تعرف المدارس ماذا تريد من طلابها، وأحيانًا لا تعرف كيف تطلب ما تريده. نعم هناك مطالب عامة تتعلق بالنظام والاجتهاد وأداء الواجبات وعدم التأخر عن الدوام... وهذه أمور جوهرية، ولكن طلبها بفوقية، وعلى نحو مباشر يجعل الطلاب يشعرون أنها أمور مفروضة عليهم؛ ولذا فإنهم يرفضونها في أكثر الأحيان. نحن نريد أن يساهم الطلاب أنفسهم في بلورة ما يمكن أن يلتزموا به في سلوكهم داخل المدرسة وخارجها، لا أن يُملى إملاءً عليهم؛ لأن ذلك هو الطريق الوحيد لتجذير الفضيلة والخير في نفوسهم.

في مدرسة بريطانية قام الطلاب بكتابة شعارات جميلة، وعلّقوها على جدران القاعات الدراسية. وقد شجعتهم إدارة المدرسة على ذلك. ومن تلك الشعارات:

ـ نهتم بكل شيء وكل إنسان.

ـ نبذل كل ما في وسعنا وقصارى جهدنا.

ـ نقول الحق.

ـ نستمع وننصت للآخرين.

ـ نعمل معًا.

ـ كلنا فريق واحد.

ـ شكرًا لإنصاتك.

ـ شكرًا لالتزامك الأدب.

ـ هل تلزم الهدوء؟

وهذه طريقة جميلة، وتتبعها بعض المدارس عندنا. ويمكن اتباع طرق أخرى في هذا الشأن كأن تطبع مقولات كهذه على الكتب المدرسية، أو على مقاعد الدارسة. كما يمكن تخصيص أسابيع مدرسية للتدريب على هذه القيم والسلوكات الحميدة. وينبغي أن يتولى التدريب والإشراف الطلاب الكبار في المدرسة.

4ـ يتوافد الطلاب إلى المدرسة من أسر متفاوتة في تعليمها وتهذيبها ووضعها المادي. وفي بعض البلدان تعدد عرقي وإثني، وفي بعضها تعدد مذهبي... وهذا كله يولّد مناحرات وتوترات عنصرية بين الطلاب. ومن واجب المدرسة حتى تكون بيئة تربوية صحية وجيدة أن تكون يقظة لذلك؛ حيث إنه من الممكن أن ينحاز بعض المُعلِّمين إلى بعض الفئات على حساب فئات أخرى؛ وللكلمات العابرة التي قد يلقيها هذا المُعلِّم أو ذاك، وللنكات والطرف التي يمكن أن يتداولها بعض الطلاب تأثير سيئ على الوضع الاجتماعي في المدرسة.

إن من المعلوم أن أساس التفاضل بين الناس في الإسلام هو التقوى، كما قال ـسبحانهـ: {**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**} [**الحجرات**: 13]، فيكرَّم الطالب ويقدَّم بناءً على صلاحه وبناءً على جده واجتهاده، وليس لأي أسباب أخرى. ومن المؤسف أن طبقية جديدة بدأت تتوضع في كثير من البلدان الإسلامية،

وتلك الطبقية آخذة في اختراق كل مجالات الحياة حتى وصلت إلى المدارس والجامعات؛ فالذي يدفع أكثر ينال وضعًا جيدًا متميزًا في العديد من الأمور، وهذا يشكل خطورة بالغة على أخلاق الطلاب وعلى مصداقية المدرسة.

حين يمتلك المُعلِّمون حساسية جيدة نحو العدل فإنهم يستطيعون حماية مدارسهم من التلويث العنصري الذي ما دخل إلى بيئة من البيئات إلا دفعها في اتجاه الانحطاط.

5ـ التنوع والاختلاف سنة من سنن الله ـتعالى ـ في خلقه، كما قال ـسبحانه ـ: {**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿118﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**} [هود: 118،119]. إن كل اختلاف بين الناس إذا أمكن تأطيره وإيقافه عند حدود معينة يصبح عامل غنى وثراء، ويمنح إمكانات جديدة للحياة الاجتماعية. وأعتقد أن المدرسة الجيدة لا تحاول أن تجعل طلابها عبارة عن نسخ مكررة، ينظرون إلى الأشياء من منظار واحد، ويشكِّلون انطباعات واحدة، ولا يحسنون سوى تنفيذ الأوامر، وإنما تترك دائمًا مساحات للتنوع الشخصي والسلوكي والفكري في إطار الالتزام الشرعي والآداب المرعية، إن التجربة تدلنا على أن محاولة جعل الإنسان يتوحد مع بيئته ليصبح نموذجًا مكررًا عما هو سائد تحوله إلى إمَّعة، وتقتل روح المبادرة لديه، كما أنها قد تفسد أخلاقه حين تهزم مشاعر الاستقلال والحرية لديه.

6ـ تدل شواهد كثيرة على أن انغلاق أي جهة تعليمية أو غير تعليمية على نفسها يسهم في إفسادها وإضعافها. وإن الانفتاح يأتي بالشمس والهواء حيث تزول العفونة. وقد رأينا الكثير من المدارس النائية عن مراكز المدن وكيف أنها صارت نموذجًا للفوضى والتسيب. ولذا فإن المدرسة الجيدة تحاول أن تكون شفافة؛ يرى الذين خارجها ما فيها، ويرى الذين فيها ما يقع خارجها. وهذا وحده هو الذي يجعلها في دائرة الضوء، ويتيح لطلابها أن يستفيدوا من الخبرات

والملاحظات الموجودة لدى الجهات الأخرى؛ ولذا فإن من المهم جدًّا أن يتواصل طلاب المدارس والجامعات مع وسائل الإعلام، ومع العلماء والمفكرين الموجودين في محيط المدرسة، وأن يقوموا بزيارات للمصانع والمؤسسات الكبرى في البلد، وأن يلتقوا على نحو دوري بالمسؤولين عن توفير الخدمات البلدية المختلفة. والهدف من كل ذلك تحويل المدرسة من بيئة راكدة مغلقة إلى بيئة مفتوحة متفاعلة، ومن مكان لتلقين المعلومات إلى إطار تواصل وتفتح وتعارف، وبذلك يزداد وعي الطلاب بالمستقبل وبمتطلبات الحياة الكثيرة والمعقدة.

7ـ المدرسة مكان لتقديم الخبرات والخدمات العلمية والتربوية. وهذه هي وظيفتها الأساسية، ولا شك؛ ولكن يجب حتى تنجح في ذلك أن ترسي بعض التقاليد التي تنظم العلاقة بين الأساتذة والطلاب على المستوى الأدبي؛ إذ ينبغي أن تظل بين الأستاذ والطالب مسافة يبقى معها المُعلِّم مُعلِّما والطالب طالبًا. كما ينبغي أن يشعر الطلاب دائمًا أن الحياة التعليمية لا تخلو من المصاعب والمشاق. وإنما أقول هذا الكلام لأن بعض المدارس الأهلية باتت تدلل طلابها من أجل اجتذابهم على نحو يفسد أخلاقهم. وبعض صور التدليل يكون على حساب كرامة مدرسيهم! وهذا يلحق أضرارًا بالغة بالحياة التعليمية وبالطلاب والمُعلِّمين جميعًا.

ومن المعروف أن الحياة السهلة الرخية توجِد نوعًا من الترهل لدى الذين يعيشون فيها، كما أن الإنسان حتى يتقدم ويترقى يحتاج إلى بعض الظروف المعاكسة؛ حتى يكتسب خبرات بذل الجهد والتغلب على الصعوبات. وعلينا أن نوقن أن الإنسان لا يشبع من المرفهات، وأنه لا بد من وضع حدود لذلك في كثير من الأحيان. نعم إن من المهم أن نوجد الظروف التي تولِّد الرغبة في طلب العلم، وتساعد على تحصيله، ولكن هذا شيء وتسهيل العلم إلى درجة تدعو إلى الكسل والإهمال، ونيل الدرجات والشهادات من غير بذل الجهد الذي يجب أن يبذل ـ شيء آخر.